تصدير

يجعل العلماء لك لشعب خصائص تميز تفكيره عمن عداه، وهم يردون هذه الخصائص إلى عوامل مختلفة أهمها المحيط الجغرافى وما ينشأ عنه من تكييف الحياة، فأما حياة استقرار ورغد تجعل للعب حظًا من التفكير. المنظم ونصيبًا من الترف العقلى، وإما حياة بداوة وشظف تلهى الناس عن كل ذلك، وتصرفهم إلى السعى وراء المادة والكفاح فى سبيلها كفاحًا عن الحياة.

وتاريخ الفكر العربى فى الجاهلية قليل الغناء، فلا ينسب إليهم شىء من النظر الشامل فى أمور الكون، ولا يعرف لهم مذهب فلسفى معين، بل كل ما يرى عنهم فى هذا يكاد لا يتعدى ما يذكر للكهان والعرافين من أقوال مسجوعة تشبه الأحاجى والألغاز.

ولكن ما من شعب يعيش وحده! ففى أطراف الجزيرة أمم تجاور العرب ولها نصيب متفاوت من الحضارة والتفكير، فالفرس والهنود والروم كان بينهم وبين العرب صلات، ودخل اليهود الجزيرة وانتشروا فيها، وسادت النصرانية فى نجران، واتصل العرب بكل أولئك فتزاوجت الأفكار، ولكن وثنيتهم ظلت هى الغالبة، وظلت آلهتهم تتمثل فى الشمس والقمر واللات والعزى ومناة وغيرها.

ولم تكن هذه الوثنية تتألف من معتقدات عامة شاملة، ولا هى دين له صورة واضحة المعالم، فاختلفت أقوالها فى الخالق، هو تارة واحد، والآلهة المتعددة وسائل لا غير، وهو تارة آلهة كثيرون لكل منها نفوذ بعينه.

وهى تضطرب كذلك فى أمـر المعاد، تظهر حيـنًا دهرية تقول لا يهلكنا إلا الدهر ولا تسلم بالبعث والنشـور، وتظهر حينًا مؤمنة بالثـواب والعقاب، وتضع الأعمال فى كتاب مدخر ليوم الحساب.

ودين هذا شأنه ليس له من القوة ما يكيف أوضاع الاجتماع، ولهذا ظل عرب الجاهلية قبائل لكل منها كيـانها، وافتقرت هذه القبائل إلى الوحدة التى تكون الأمم وتنهض بالشعـوب، فلما جاء الإسـلام جمع شتاتهـا وألف بينها وجعل منها أمة متحدة فى غاياتها الدينية وأغراضها الدنيوية.

واشتـمل التنزيل على مـبادئ عـامة كـونت النظام العقلى الإسـلامى، وتضمنت هذه المبادئ تحديد الذات الأقدس، وتعـيين صفاته، وانفراده بالملك كمـا اشتملت على حـدود المعاملات وأنـواع العبادات، وعلى شـرح الثواب والعـقاب فى دار البـقاء، وهى فـوق هذا كله تحث على إنعـام النظر فى فى ملكوت السموات والأرض.

وفى عهد النبى ﷺ كان الرعـيل الأول من المسلمين يكرهون الجدل فى الدين ويتـقبلون مـا يجىء به التنزيل فى وصف الله سـبحانه دون أن يـسألوا النبى عن معنى شـىء من ذلك، كما كـانوا يسألونه عن أمر الصـلاة والزكاة والصيام والحج، وكما سألوه عن أحوال الجنة والنار.

ولما توفى الرسول اتبـع المسلمون فيـما لم يرد فيـه نص من القرآن، ثم اتبعوا الاجماع، ثم عمدوا إلى الاجتـهاد أى إلى استعمال الرأى والقياس فى الشئون العـملية وهى موضوع علم الفقـه. وبهذا نشأت المذاهب على حظوظ متفاوتة من استعمال الرأى والقياس.

وانتقل النظر العقلى بعد ذلك إلى العقائد، وسمى هذا النظر علم الكلام أو علم التوحيد.

وكان من نتائج الجدل فى العقاد أن تشعب المتكلمون إلى فرق.

والجدل فى العقائد نشأ أن تشعب المتكلمون إلى فرق.

والجدل فى العقائد نشأ أولا فى أحضان السياسة، وترعرع فى حماها، وتأثر بها زمنًا طويلا. فأول خلاف خطير عرفه المسلمون كان خلاف الإمامة، "وما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان"، ذلك أنه عند وفاة الرسول لم يكن قد أوصى بمن يخلفه فاشتد الجدل بين المسلمين فيمن تكون الخلافة. أفى الأنصار أم فى المهاجرين، أم فى بيت رسول الله، أم يختار الخليفة من بين المسلمين جميعًا؟

وهل الإمامة تكون بالانتخاب والاختيار أم بالنص والتعيين، وما هى شروط الإمامة؟ وكمن الخلاف أثناء إمامة أبى بكر وعمر وعثمان، ولكن النفوس انطوت على ما فيها. فلما كان مقتل عثمان ثارت الفتنة من جديد واستعر أوارها. وقوى ساعد القائلين باختيار الخليفة من بيت الرسول فبايعوا على بن أبى طالب.

على أن هذه البيعة لم تلق تأييد المسلمين جميعًا، وهب معاوية يطالب بدم عثمان، ونشبت الحرب بينه وبين على، ثم دعا عليًا إلى التحكيم فقبله، فخرجت على على طائفة من أنصاره قالوا: لا حكم إلا الله، وحكم الله فى الأمر واضح، وقبول على للتحكيم خطأ لأنه يتضمن الشك، ومرتكب الخطيئة فى رأيهم كافر يجب قتاله، ولهذا خرجوا على على وقاتلوه، وهؤلاء هم الخوارج.

وكان لعلى شيعته، بدأوا بالدعوة إلى حقه فى الخلافة دون سواه، ثم تطورت هذه الدعوة إلى مذهب فى الإمامة يقول إنها ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، بل هى ركن الدين ودعامته فلا يجوز لنبى تفويضها إلى الأمة تختار من تشاء وتترك من تشاء. ثم زعموا أن النبى أوصى بها لعلى، وذكروا فى تأييد ذلك نصوصًا أنكرها أهل السنة.

وانقسم رأى الشيعة فى بيعة أبى بكر وعمر وعثمان، فقال بعضهم إنهم أخطأ لأنهم اغتصبوا حق على فى الإمامة وهو أفضلهم ولا تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

وقال الغلاة منهم بتكفير الأئمة الشابقين، وألهوا عليًا وجعلوا له العصمة ونسبوا له علم الغيب، ومنهم من قال إن عليًا لم يمت وإن له رجعة يملأ بها الأرض علمًا ونورًا، كما قالوا: إن للقرآن معنى ظاهرًا ومعنى باطنًا، وإن الإمام وحده يعلم علم الظاهر وعلم الباطن، ويعلم الناس فى وقته ما يستطيعون فهمه من أسرار الكون، ثم يورث هذه العلوم من بعده.

والخلاف بين الشيعة والخوارج فى الإمامة أدى إلى الكلام فى تحديد معنى الكفر والإيمان، وهو الإيمان والإسلام شىء واحد، أم هناك فرق بينهما؟ وهل الإيمان يزيد وينقص، أم هو شىء ثابت لا يزيد ولا ينقص؟

وكان الخوارج يرون أن الإيمان معرفة بالله ورسله وأداء للفرائض وكف عن الكبائر. ومرتكب الكبيرة فى رأيهم كافر.

والشيعة جعلوا الاعتقاد بالإمامة على طريقتهم ركنًا من أركان الدين فمن لم يسلم بها كان كافرًا.

وكانت طائفة من المسلمين قد وقفت بعيدة عن الخلاف السياسى لا تقطع فيه برأى، وإنما ترجئ الأمر إلى الله يحكم فيه بما شاء.

ومذهبهم فى الكلام كمذهبهم فى السياسة، فالإيمان عندهم إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب لا غير، وهم يقولون لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة، وهؤلاء هم المرجئة.

فما هو الكفر، ما هو الإيمان؟ وهل الإيمان إقرار باللسان، أم اعتقاد بالقلب، أم إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح؟

وما حكم مرتكب الكبيرة، أمؤمن هو أم كافر؟ وما مصيره فى دار البقاء؟ وما هو المقصود بالوعد والوعيد؟

والبحث فى هذه المسائل أدى إلى الكلام فى الجبر والاختيار.

هل الإنسان مسير أم مخير، أنحن أحرار الإرادة نفعل ما نشاء ونترك ما نشاء؟ أم أعمالنا آثار لعلل خارجة عن إرادتنا؟

وإذا كانت أعمالنا آثاراً لتلك العلل فما حكمة الثواب والعقاب فى دار البقاء؟

والجبر والاختيار من الأمور التى حيرت عقل الإنسان فى أطواره المختلفة. بدأ الكلام فيهما فى صدر الإسلام، ولما فتح المسلمون الشام واتصلوا بالمسيحيين هناك قامت بينهم مناقشات فى العقائد خلقت للمسلمين أفقًا للتفكير جديداً.

وكان ليوحنا الدمشقى - وهو من كبار مفكرى الكنيسة - تأثير كبيرة فى تلك الحركة الفكرية إذ صنف كتابًا جعله مناظرة بين مسلم ومسيحى وعرض

فيه لكثير من المبادئ المسيحية كالإرادة الإلهية وتعلقها بالرحمة العامة التى يترتب عليها سعادة البشر على السواء، والقول بحرية الإرادة الإنسانية.

ووجدت هذه الأقوال مكانًا خصيبًا فى الشام ولكنها لقيت فى سواد العراق أشد معارضة إذ قاومها الحسن البصرى وكان يكره تحكيم العقل فى شئون الدين ويستمسك بنصوص الكتاب والسنة.

على أن بعض تلاميذ الحسن لم يذهبوا مذهبه بل جعلوا للنظر العقلى مكانًا فى أمور العقائد.

جاء رجل إلى الحسن البصرى يسأله عن أمر مرتكب الكبيرة. أكافر هو على رأى الخوارج أم مؤمن على قول المرجئة؟

وأطرق الحسن يفكر، ولكن تلميذه واصل بن عطاء انبرى فقال هو فى منزلة بين المنزلتين، ثم اعتزل واصل مجلس أستاذه وانتحى مكانًا يعلم فيه الناس فقال الحسن: لقد اعتزلنا واصل.

هذه القصة لا يكاد يخو منها كتاب من كتب الكلام، وهم يجعلون قول الحسن لقد اعتزلنا واصل سببًا فى تسمية تلاميذه باسم المعتزلة.

وهناك فروض أخرى لسبب هذه التسمية ليس هنا مقام الإفاضة فيها لأن الذى يعنينا هو تلمس الفروق بنى تفكير المعتزلة وغيرها من الفرق.

قلنا أن المتكلمين اختلفوا فى حكم مرتكب الكبيرة فبعضهم قال بتكفيره وقال آخرون بغير ذلك، أما المعتزلة فقالوا مرتكب الكبيرة لا هو بالمؤمن ولا هو بالكافر وإنما هو فاسق أى فى منزلة بين المنزلتين، وعرضوا للكلام فى الجبر والاختيار فذهبوا إلى أن الإنسان يخلق أفعاله وأنه يستطيع بعقله تمييز

الحسن والقبيح من الأفعال وإن لم يرد بهما شرع، فهو إذن مسئول عن أفعاله. ولهذا يثاب عند الإحسان ويعاقب عند الإساءة.

وكانت طائفة من المسلمين قد ذهبت إلى القول بأن الله تعالى جسم واستشهدوا بما ورد فى القرآن الكريم أو فى الأحاديث النبوية مما يثبت لله صفات كالسمع والبصر والكلام والقدرة والحياة والعلم وغيرها، أو يجعل له بعض الأعضاء كاليد والوجه والعين.

واختلف المسلمون فى فهم هذه الآيات والأحاديث وفى تأويلها، أما أهل السنة فكانوا يقبلون الكلام على ظاهره من غير محاولة لتأويله.

وأخذ المجسمة كأصحاب هشام بن الحكم والكرامية بظاهر اللفظ فأثبتوا لله صورة وأعضاء وجوارح وزعموا أنه جسم له حد ونهاية.

وذهب الأشاعرة ومن تأسى بهم إلى أن الصفات ثلاث أنواع: ذاتية، ومعنوية، وفعلية.

فالذاتية هى التى تدل على الذات كالواحد والغنى الأول والآخر

والمعنوية هى التى تدل على معان قائمة بذاته تعالى كالحى والقادر والعالم والسميع.

وهذان القسمان يشملان الصفات الأزلية القديمة. أما القسم الثالث فيشمل الصفات الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرة الله تعالى كالخالق والرزاق ونحو ذلك. وكل اسم مشتق من أفعاله لم يكن موصوفًا به قبل وجود أفعاله.

ورأى المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة أن "القدم" أخص وصف لله

لا يشاركه فيه ذات ولا صفة، فإثبات صفات قديمة لله تجعل له شريكًا فى القدم ولهذا أنكروا الصفات، وهم لا يريدون بذلك نفى القدرة أو العلم أو الحياة عن ذات الله تعالى، وإنما يقولون أن الله عالم قادر حتى بنفسه لا يعلم وقدرة وحياة. وأولوا ما ورد فى الآيات والأحاديث من الصفات فقالوا إن اليد معناها النعة والعين معناها العلم والوجه معناه الذات.

هذه المسائل وأشباهها كانت أصول الخلاف بين الفرق الإسلامية. وأنت ترى أنها مناقشات فى العقائد الدينية وفى تصورها على الوجه الصحيح الذى قصده الشارع كما أنها مناقشات فى نظام الحكم وفيمن تستند إليه مقاليد الأمور.

والحجة فى مثل هذه المسائل كانت تعتمد على الدليل النقلى ولهذا استشهدت كل فرقة بآيات من الكتاب أو أحاديث للرسول تدلل بها على صواب رأيها وفساد رأى خصومها.

وظل الأمر على ذلك إلى أن اتسعت الفتوحات، وأشرقت نهضة المسلمين فى العصر العباسى، واشتغل الخلفاء والأمراء بالعلم والأدب، وأطلقت قيود الفكر، ونقلت المصنفات من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية إلى اللغة العربية، وكان من بينها كتب الفلسفة والرياضة والمنطق. وعكف المسلمون على دراسة المنطق والإلهيات فوقفوا على قواعد للجدل تخالف ما ألفوه وعلى مذاهب فلسفية لم يكن للعرب بها علم من قبل.

وتنبه علماء الكلام إلى أن هذه المذاهب فيها أمور تصادم الدين فتعرضوا للرد عليها، وفيها آراء يمكن أن يستفاد بها فى نصرة الدين فاصطنعوها، بل إن كبار مؤلفيهم ذهبوا إلى ضرورة المباحث الفلسفية العامة للمشتغلين بعلم الكلام فجعلوها مقدمات لدراسته ومزجوا الفلسفة بالدين.

تراهم مثلا يقدمون الكلام فى نظرية المعـرفة فيتكلمون عن العلم، وهل هو ضرورى أو مكتـسب، ويقسـمون الضرورى إلى الوجـدانيات والحسـيات والبديـهيات، ويظهـرون كيف يغلط الحـس فى الجزئيات، ثـم يوردون أقوال القادحـين فى البديهيـات وكيف أن العقل يـجزم بصحة دلـيل وبما يلزمه من النتيجة ثم يظهر خطأه، ويميـزون النظر الصحيح والنظر الفاسد، وهل النظر الصحـيح يفيـد العلم فى كل شىء؟ وهل هو يفـيد الظن؟ وما هـى ضوابط الاستدلال؟

ثم يبـحثـون بعد هذا فى الوجـود والماهية، وفى الوجـوب والإمكان، والقدم والحـدوث والوحدة والكثـرة والعلة والمعلول، والأعـراض والجواهر، والحـركـة والسكون والزمـان والمكان، والخلاء، والجـوهر الفـرد، والصـورة والهيولى، وغير ذلك من المسائل الفلسفية الخالصة.

وليت الأمـر وقف عند هذا، بـل إنهم - كـمـا يقـول ابن خلدون فى مقدمـته - جعلوا آراءهم فى هذه المسائل "تبـعًا للعقائد الإيمـانية فى وجوب اعتقادها لتوقف الأدلة عليها".

والدين يفتقر إلى العاطفة أكثـر من افتقاره إلى العقل، والنفس الإنسانية قد تطمئن إلى شىء تجد راحتهـا فيه دون أن تلقى بالا إلى الأدلة والمناقشات، وقد تتذوق أحوالا لا يهدى إليها العلم والنظر.

ولهذا لـم تكن مذاهب المتكلمـين التى تعتـمد على الأدلة النقلـية تارة وعلى الأدلة العـقلية تارة أخـرى لترضـى سائر الناس وبخـاصة أهل التـقى والصلاح، فاتجهوا وجهة أخرى اطمأنت إليها نفوسهم وسلكوا سبيل التصوف والزهد.

وأصل التصوف العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه. والمعرفة عند المتصوفة إنما هى نتيجة الطاعة والإخلاص، فهى لا تتوقف على النظريات العقلى ولا المناقشات الكلامية، وهم يقولون أن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك. وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف، وإدراك للأحوال القائمة بالنفس من فرح وحزن وأمثال ذلك. وهذه الإدراكات إنما تنشأ بالمجاهدة والعبادة وحاسبة النفس. فالمريد فى مجاهدته وعبادته تنشأ له أحوال، وهى إما أن تكون عبادة فترسخ وتصير مقامًا للمريد، وإما أن تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو غير ذلك من المقامات، ولا يزال المريد يرقى بالمجاهدة من مقام إلى مقام إلى أن ينتهى إلى مقام التوحيد والعرفان فيدرك من حقائق الوجود ما لا يدركه سواه.

وقد ذهب المتصوفة إلى أنه لا فاعل فى كل شىء إلا الله، وزاد الغلاة منهم على هذا بان قالوا "لا موجود فى كل شىء إلا الله" ونشأ عن هذا مذهبهم فى وحدة الوجود الذى جعل العالم خيالا لا حقيقة ووحد بين ذات الله تعالى وذات الإنسان، ولهذا نجد الحلاج يقول: "ما فى الجبة إلى الله".

ويقول أيضًا:

أنا من أهوى ومن أهوا أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ولا يسلم الصوفية بوجود شىء بعد الذات الإلهية سوى ما يختلف على نفوسهم من أحوال الشوق والوجد إلى الله. وحقيقة النفس عندهم هى

حالات أو أنواع من الشعور باللذة والألم، وأهمها الحب الذى يسمو بنا إلى الله.

وبعد

هذه مقدمة لابد للوقوف على تيارات الفكر العربى واتجاهاته من العصر الجاهلى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى وهو الوقت الذى وجد فيه الفارابى.

فمن هو؟ وكيف تأثر بهذا العصر؟ وكيف أثر فيه؟ وما هى فلسفته التى تميز بها؟

هذا ما نحاول الآن بيانه.

***

obeikandl.com